كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وروي عن ابن عباس، قال: «إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»، وما كان العرب يجرؤون على التصريح أنها من عند أنفسهم، إنما يفترون على الله الكذب فيزعمون أنها من شرع إسماعيل ومن شريعة إبراهيم، وكذلك الأحبار والرهبان من النصارى واليهود كانوا يفعلون، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، أما في الجاهلية المعاصرة فهو الإلحاد في الحاكمية والتشريع، فهم يسمّون نظامهم بالديمقراطية، وهو شعارهم في جميع المراسيم والوثائق والدواوين، ويسمّون من يزاول التشريع بالمشرّع والسلطة التشريعية جهارًا نهارًا في إعلامهم وقنواتهم ودساتيرهم ومناهجهم التعليمية، في اغتصاب سافر لسلطان الله عز وجل وإعلان فاضح لربوبية البشر.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، نعم، إنهم يريدون؛ لأنهم ينتخبون فينصّبون الطاغوت، ويثورون فيغيّرون طاغوتًا بطاغوت. إنهم غير دين الله يريدون؛ لأن حُكم الجاهلية غير دين الله، ومن يبتغي حُكم الجاهلية فقد ابتغى غير دين الله بمنطوق الآيتين، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾، أي: من ابتغى حُكم الجاهلية فهو في غير دين الله، بل هو في دين من يحكم بشريعته، ويخضع لسلطانه، أي: في دين ملوك الأرض.

وهذا المعنى تؤكده النصوص القرآنية في كل مناسبات التشريع، فما من مرة ورد في كتاب الله تشريعًا إلا أشار إلى المصدر الذي يجعل لهذا التشريع سلطانًا في الأرض، ولمّا يشار إلى شرائع الجاهلية وعُرفها وتصوّراتها وتحريمها وتحليلها فهو يردفها غالبًا بقوله جل وعلا: ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾؛ لتجريدها من السلطان ابتداءً وبيان علة بطلانها في كونها لم تصدُر من ذلك المصدر الوحيد الصحيح الذي يملك حق الحُكم والتشريع، فهو يحكم ابتداءً ببطلانها كلية بطلانًا أصليًّا بما أنها صادرة من جهة لا تملك حق إصدار الشرائع والأحكام. هذه بعض أوجه التوافق بين الجاهليتين، قال ابن عباس في تفسير قوله جل وعلا: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾: «تكون جاهلية أخرى». ونحن نعيش في هذه الجاهلية الأخرى، ووالله إن الجاهلية الأولى أشرف من جاهلية اليوم؛ فجاهلية أمس اتّبع العرب فيها الآباء والأجداد، وجاهلية اليوم قد اتّبعوا فيها اليهود والنصارى من الأعداء والأنداد.

فالمسلم لا يحقّق الإسلام في هذه الجاهلية إلا بالانخلاع منها، والبراءة من أهلها، فتحديد ماهيّة الإسلام وحقيقة الإيمان إنما ينطلق من التصوّر الصحيح للواقع الذي أُرسل فيه الرسل والبيئة التي دُعي فيها للإسلام من أول الأمر وهي: الجاهلية، وتحديد القدر الذي دعا الرسل أقوامهم لتحقيقه للدخول إلى الإسلام، والصفة التي جاء بها أتباع الرسل حتى كانوا مسلمين، فيسعى المسلم في تحقيقها، فإذا علمنا أننا نعيش في هذا الزمان في جاهلية نكراء كجاهلية أمس بل هي أشد، استوجَب علينا الانسلاخ منها والبراءة من أهلها وتحقيق القدر الذي جاء به الأنبياء وأتباعهم.

نسأل الله أن يُقيمَنا على الملة الغرّاء ويثبّتنا عليها حتى نلقاه.

مطوية

السِّراج

www.seiraj.com

تكون جاهلية أخرى

شعبان ١٤٤٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى آله وصحبه والطيبين

أما بعد: فالكثير من المغفلين في هذا الزمان يعتقد أن الشرك هو عبادة الأصنام والأحجار فقط، وأن الطاغوت هو الشيطان فقط، وأن الجاهلية هي جاهلية قريش فقط، فإذا اجتنب ذلك كان من المسلمين الموحّدين، وهيهات هيهات... فإن في كل زمان صور من الشرك الحديث التي يجب عليك اجتنابها والبراءة منها، في كل عصر رؤوس من الطواغيت التي يجب عليك الكفر بها، والبراءة من عُبّادها، وهنالك جاهلية أخرى الواجب عليك الانسلاخ منها، فإن فعلت ذلك جانبت الطواغيت وعبادتها.

لقد استدار الزمان كهيئته يوم بُعث النبي ﷺ، فصار الدين غريبًا كما بدأ، وصارت مفارقة ديانة الناس في هذا الزمان شديدة على النفوس، كمفارقة دين الآباء والأجداد في عهد أول الدعوة المحمديّة، وإن الطريق إلى قبول الحق قد وُضعت فيه سدود وخنادق وسواتر، فتَجاوُزها لمن تشرّبها يحتاج إلى قوة جذب وإخلاص ويقين، وإن الله يهيئ عباده لتحمّل الحمل الثقيل، فالسير في خلع هذه الأشواك يمرّ بسالكه عبر البلاء، وهو بحدّ ذاته تمحيص؛ ليعلم الله الصادق من الكاذب، ولا يزال السالك يهدم الأصنام تلو الأصنام إلى أن يصل إلى إفراد العبودية لله، بعد أن يخلع الرموز والأوثان ويتبرأ من عابديها ومنظّريها والأصنام.

لقد كانت قريش تزعم أن ملّة إبراهيم هي ملتها وهُم يعبدون الأوثان ويشركون بالله الواحد الديّان، وليس بينهم كتابٌ ناطق، ولم يُبعث بين ظهرانيهم نبي، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، أما قومنا فبين أظهرهم كتاب الله، ومنهم من يقيم شعائره،

واتفقوا على تعطيل حدوده وشرائعه، قد حرّفوا جوهره ومعانيه، فآمنوا ببعض تنزيله وكفروا ببعض، فإن علمت أن الله قد كفّر قوم قريش مع خلو النذارة والبشارة قبل الرسالة، فكيف يُعذر قوم أشركوا بالله وقد أتاهم النذير وبين أيديهم الكتاب المستنير؟! ولقد كان كفار قريش يعلمون معنى لا إله إلا الله ويجحدونها لفظًا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾، أما أقوامنا فإنهم يقولون لا إله إلا الله لفظًا ويجحدون معناها، فيُشركون مع الله آلهة أخرى ويتّخذون من دونه أربابًا، ولقد كان مشركو قريش يشركون في الرخاء ويوحّدون في الشدة: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، أما أقوامنا فيشركون في الشدة والرخاء، بل هم أشد شركًا في الشدة من الرخاء.

أن تنشأ وأنت تظن أنك على الإسلام الصحيح، قد ورثته من الآباء إلى الأجداد، وإن كان عندك من خلل فهو في التهاون في الصلاة ربما، أو في الاستغراق في انتهاك بعض الحرمات، ثم تسمع من قوم ناصحين لك أنك لم تشمّ رائحة الإسلام في يوم من أيامك، وأن طريق الإسلام هو البراءة من هذه الجاهلية النكراء والخروج منها إلى الدين الحنيف، فيكبر عليك الخطب وتستعظم هذه الدعوة، وقد يصدق عليك قوله تبارك وتعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

إن من الناس من لا يريد السماع ويُعرض بأذنه عن الحق؛ لأنه يرفض فكرة التغيير من الأساس، فهو يرفض ابتداءً مفارقة دين الآباء ودين المشايخ والعلماء، كما كان الكفار يضعون أصابعهم في آذانهم خشية سماع الحق من الأنبياء،

قال نوح ﷺ في التنزيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

لقد كان مشركو قريش من أشد العرب عداوة وقتالًا لهذا الدين، فكان بينهم وبين الحق سجالات ومواقع كثيرة، وكذلك مشركو زماننا من يدعوهم إلى حُكم الكتاب والسنة والأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك يسومونه سوء العذاب بالسجن والنفي والقتال، فكم قاتلَت هذه الشعوب المتمثلة في الجيش الشعبي الوطني من يدعوها لحاكمية الكتاب وينهاها عن الشرك بالله في العبادة والحكم والطاعة، وذلك عبر عقود من الأزمان، وترى الأقوام إذا خرجوا منتفضين على طواغيتهم فإنهم يدعون إلى الديانة الديموقراطية والدولة المدنية، فيستبدلون طاغوتًا بطاغوت.

ومن أوجه التشابه بين الجاهليتين هو التبرج والسفور والانخلاع من الفطرة السويّة، فمن نظر في تبرج الجاهلية الأولى مما روي في ذلك من الآثار، يرى أنها جدّ محتشمة قياسًا بالجاهلية المعاصرة، بل زاد عليها قومنا جاهلية قوم لوط، ولا تنظر إلى عارضات الأزياء في الفنادق والقنوات، ولكن انظر إلى العارضات في الشوارع والمنتديات؛ فاللحم العاري المتناثر هنا وهناك يثير اشمئزاز أصحاب الفطر السليمة. ومن أشدّ أوجه التشابه بين الجاهليتين هو في شرك الاتّباع والتشريع من دون الله؛ فقد كانت الجاهلية الأولى تزعم أن ما تشرّعه له أصل في دين الله، كما ذكر الله ذلك في أواخر سورة الأنعام عما كانت تزاوله العرب من تقاليد وشرائع في شأن الذبائح والنذور والأنعام والثمار والأولاد، إذ أنها كانت تَنسب ذلك إلى الله تعالى افتراء عليه،